الفصل السادس

صداقته مع الأسرة المالكة

ليكن سفيرك في القلب طيبا بالعقل والنزاهة مميزا وبالتواضع في العمل مزدانا حتى لا يخشى أحد منه تقربا ولا يجد هو -إذا اقترب- من الاحترام حرمانا وليهتم سفيرك بمصير الأصدقاء ليكون بذلك سعيدا وفرحانا.

يوسف هاس - حاجب البالاساغوني

لقد حاول نذير تيورياقولوف على مدار السنوات الثمانية التي قضاها في منصب المندوب المفوض النهوض بالعلاقات بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية - كما يقال في أيامنا - إلى مستوى المشاركة الاستراتيجية، وكان بحكم معرفته بالشرق يدرك أن تعزيز مكانة الاتحاد السوفيتي في شبه الجزيرة العربية سوف يتوقف بشكل كبير على تمكنه أو عدم تمكنه من إقامة علاقات ودية وحميمة مع الأسرة المالكة ومع عبد العزيز آل سعود نفسه وولي عهده الأمير فيصل.

ولعل من الجدير أن نذكّر القارئ مرة أخرى بأن المملكة العربية السعودية هي موطن الإسلام، ذلك الدين الذي جاء به النبي محمد في القرن السابع الميلادي، وطبقا لأحكام الإسلام يُعد الملك هو الإمام (الزعيم الديني) في

الوقت نفسه، كما تُعد الأسرة المالكة التي يزيد عدد أفرادها اليوم على خمسة آلاف أمير هي القوة السياسية المسيطرة في الدولة السعودية، وفي أوائل القرن التاسع عشر تمكنت أسرة آل سعود التي كانت تتولى مقاليد الحكم في الرياض من توسيع الرقعة الخاضعة لسلطانها بضم جزء كبير من أراضي المملكة العربية السعودية الحاضرة، وخلال الحرب الأهلية والحرب مع الأتراك الذين ظل قطاع واسع من شبه الجزيرة العربية خاضعا لسلطانهم منذ القرن السادس عشر فقد السعوديون الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها، إلا أنهم تمكنوا في بداية القرن الثامن عشر من استرداد ما فقدوه بعدما أصاب الضعف سلطة الأتراك.

وقدر لمحمد بن سعود أمير مدينة الدرعيّة الصغيرة الواقعة في نجد في وسط الجزيرة العربية أن يكون مؤسس المملكة العربية السعودية المعروفة اليوم بقوتها، وتلا ذلك قرن ونصف من الصراع من أجل إقامة الدولة الجديدة، ثم إن هذا الصراع لم يكن مع الكفار وإنما مع إخوانهم من المسلمين وعلى رأسهم الأتراك الذين أقلقهم ظهور من يتطلع إلى السيطرة على العالم العربي بأكمله وربما على العالم الإسلامي وذلك على مقربة منهم. وفي عام ١٨١٨م ألحق الجيش التركي الهزيمة بالسعوديين وتم نقل عبد الله حفيد محمد بن سعود إلى القسطنطينية حيث أطيح برقبته، وبدا الأمر وقتها وكأن الأسرة السعودية ينتظرها مستقبل مليء بالأسى، وقد كان، ففي مطلع القرن العشرين كانت الخزانة السعودية برمتها لا تملأ أكثر من خُرّج.

ولم تهدأ الحروب في شبه الجزيرة العربية طوال القرن التاسع عشر

بأكمله، حيث كانت تدور رحى الصراع على السلطة، وفي عام ١٩٠٠م دخل زعيم الوهابيين الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود بفرقة قوامها أربعون رجلا في مواجهة مع السلطان ابن رشيد سلطان نجد، وفي يناير من عام ١٩٠٢م ألحق ابن سعود هزيمة نكراء بحامية رشيد بقيادة محافظ الرياض عند أسوار قلعة بلدة الرياض، وتم إعلان ابن سعود حاكما جديدا لنجد، وعندما اعترف الوالي العثماني في العراق في عام ١٩٠٥م بابن سعود واليا له في نجد قَبِل ابن سعود الولاء للإمبراطورية العثمانية دون تردد، مما ساعد على تحسين وضعه السياسي بشكل كبير.

وبعد مقتل ابن رشيد سلطان نجد السابق في العام نفسه انفرد ابن سعود بحكم نجد تماما، وتمكن في الفترة من عام ١٩٠٧م حتى ١٩١٢م من تعزيز سلطانه على نجد، وهذا يرجع في المقام الأول إلى مساندة زعماء القبائل الكبرى له مثل مطير وعتيبة، كما يرجع إلى تمكنه من السيطرة على البدو بتسكينهم في ثكنات شبه عسكرية. وبدأ ابن سعود يتحرك بالتعاون مع علماء نجد، فأشعل من جديد مشعل الوهابية في عقول وقلوب أنصاره، ووحّدهم في جماعة الإخوان التي كان هدفها القضاء على أعداء السعوديين وتثبيت سلطتها. وقد أدى أعضاء هذه الحركة دورا ملحوظا في توحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية ابن سعود في الفترة من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٣٠م، بل كانوا يمثلون صفوة فصائلة العسكرية في الفترة ما بين عام ١٩١٨ و١٩٢٩م.

بيد أن ظهور مثل هذه التشكيلات العسكرية و«أداءها المهني» المكثف قد أدى بالبلاد حتما إلى موجة جديدة من النزاعات الداخلية دامت عشر سنوات، ولكنها

أدت في النهاية إلى المزيد من تثبيت سلطة ابن سعود. وأخيرا تمكنت قوات ابن سعود من السيطرة على مكة كبرى مدن الحجاز في اكتوبر من عام ١٩٢٤م ثم على المدينة في ديسمبر عام ١٩٢٥م، وبعدها جاء الدور على جدة لتكتمل بذلك السيطرة على الحجاز. وفي الأول من أغسطس وفي المسجد الكبير أعلن ابن سعود، أمير نجد، نفسه ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها.

وكان الاتحاد السوفيتي أول من اعترف بابن سعود وأقام معه علاقات دبلوماسية، مما ساعد كثيرا في تعزيز وضع دولة السعوديين عالميا، فيما وقّعت بريطانيا الحليف التقليدي للحجاز معاهدة الاعتراف بحكومة ال سعود (والتي تعرف بمعاهدة جلبرت كلايتون) بعد ذلك بفترة، وبالتحديد في مايو ١٩٢٧م، وفي عام ١٩٣٢م تغيّر اسم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها لتصبح المملكة العربية السعودية برئاسة عبد العزيز آل سعود. وفي هذه الفترة تحديدا عمل نذير تيورياقولوف مندوبا مفوضا للاتحاد السوفيتي.

وردا على خطاب الجانب السوفيتي المؤرخ في الثاني من يوليو عام ١٩٢٨م، الذي يفيد نقل كريم حكيموف الوكيل الدبلوماسي والقنصل العام من المملكة العربية السعودية، ارتأى الملك ضرورة أن "يعرب عن سعادته بالمحاولات التي بذلها سعادة الوكيل لتعزيز العلاقات الطيبة والصداقة بين البلدين، حيث تركت هذه المحاولات انطباعا ممتازا"، كما تضمنت الرسالة الملكية أيضا التعبير عن الارتياح لما تضمنه خطاب الحكومة السوفيتية المؤرخ في التاسع من يوليو عام ١٩٢٨م من رغبة الاتحاد السوفيتي في تعزيز علاقات الصداقة القائمة بين البلدين وتعيين "سعادة نذير تيورياقولوف وكيلا دبلوماسيا وقنصلا عاما لدينا".

ولم يكن الملك موجودا بالحجاز وقتها، ولكن في يوم الثالث من أكتوبر عام ١٩٢٨م استقبل الأمير فيصل، نجل الملك ونائبه في الحجاز، المندوب المفوض الجديد «استقبالا يليق به»، ورغم التخلي عن بعض قواعد البروتوكول فإن التأكيدات التي تضمنتها رسالة الملك بأن المندوب السوفيتي "سيلقى منا ومن رجال حكومتنا كل رعاية وحسن معاملة رغبة في تحسين العلاقات الودية القائمة بين البلدين"، سمحت لتيورياقولوف بعمل علاقات في المستقبل مع الأسرة المالكة.

ولم يتوان تيورياقولوف في استغلال هذه الاتصالات، حيث أكد في كلمته عند تسليمه أوراق اعتماده قوله "إنني سأحذو حذو سلفي، وسأسعى بكل السبل نحو تنمية علاقات الصداقة التي سعدنا بنشأتها بين مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها والاتحاد السوفيتي. وفي أدائي للمهام التي أوكلتها إليّ حكومتي سأعتمد على التعاطف والدعم من قبل صاحب الجلالة الملكية. وأتمنى أن أحوز على نفس الثقة التي حاز عليها سلفي، واسمحوا لي أن أعرب عن ثقتي في أن الروابط والعلاقات ستتطور بما فيه صالح البلدين".

أما كلمة الأمير فيصل ردا على تيورياقولوف عند تسليمه أوراق اعتماده فقد صيغت في أروع الصيغ الدبلوماسية، فالعبارات البروتوكولية كان من الممكن أن يُسْتَشَفّ منها استعداد السعوديين للتعاون النشط مع الاتحاد السوفيتي بوساطة مندوبه الجديد، وقد تجلى هذا في التمنيات "بطيب الإقامة والنجاح في العمل"، بالمثل كما في التأكيدات بأن المندوب السوفيتي بإمكانه أن يتوقع تعاونا كاملا من قبل الحكومة.

وبعد مضي عام على عمل تيوريا قولوف في المملكة العربية السعودية تم رفع درجته الدبلوماسية، حيث قررت اللجنة التنفيذية المركزية تعيينه «مبعوثا فوق العادة ووزيرا مفوضا لدى شخص صاحب الجلالة الملكية»، وفي السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٣٠م سلم تيوريا قولوف إلى الأمير فيصل في مكة أوراق الاعتماد الخاصة بتعيينه هذه المرة وزيرا مفوضا ومبعوثا فوق العادة، وتبادل الجانبان إلقاء الكلمات مرة أخرى، حيث دلت نغمة الحديث وحرارته على ارتفاع مستوى الود والثقة المتبادلة بشكل ملحوظ خلال العام المنصرم.

ومن الواضح أن الهدف من تغيير الدرجة أو بالأحرى التعيين الجديد كان هو تعزيز وتقوية علاقات الصداقة بما فيه صالح البلدين، ففي كلمته ارتأى نذير تيوريا قولوف ضرورة أن يشدد على أنه يقدر تلك العلاقات التي نشأت لديه شخصيا مع أعضاء الأسرة المالكة، حيث قال: "سأبذل كل ما في وسعي لتحقيق هذه المهمة معتمدا على مشاعر الود السامية وعلاقات التعاطف التي شرفت بها من جانب صاحب الجلالة الملكية ومن جانب سموكم، وأيضا من جانب رجال الدولة منذ وصولي إلى هذا البلد، وآمل أن أحظى بالود نفسه والتعاطف في منصبي الجديد. وأرجو من سموكم التكرم بإبلاغ صاحب الجلالة الملكية ودي واحترامي وأطيب أمنياتي لجلالته ولأعضاء الأسرة الملكية ولهذا البلد".

ولم تكن كلمة فيصل ردا على تيوريا قولوف أقل ودا، حيث تضمنت قوله: "... إن علاقات الود الكريمة التي تكرمتم سيادتكم بالإشارة إليها والأمنيات الطيبة التي أعربتم من خلالها عن حرصكم على مواصلة علاقات الصداقة وأفضل العلاقات وتعزيزها إنما هي مشاعر مشتركة تجمع بيننا.

ولاشك لديّ أننا نبدأ اليوم عهدا جديدا في علاقات بلدينا وأن هذا يضع الأساس المتين للصداقة بيننا. وإني على ثقة من أن سيادتكم ستلقون كل تعاطف وعون من قبل صاحب الجلالة الملكية في أداء المهمة الموكلة إليكم، أما من جانبي ومن جانب رجال الدولة فستجدون رغبة صادقة في مساعدتكم في كل ما من شأنه تعزيز علاقات الصداقة بين البلدين.

وبهذه المشاعر أتسلم أوراق اعتماد سيادتكم نيابة عن والدي الجليل صاحب الجلالة الملكية، وأرجو من سيادتكم التكرم بإبلاغ أسمى التحيات وأطيب الأمنيات إلى فخامة السيد رئيس اللجنة التنفيذية المركزية بالاتحاد السوفيتي وإلى شعبه النبيل نيابة عن صاحب الجلالة الملكية وشعبه. وأتمنى لسيادتكم التوفيق في عملكم".

وبالطبع لم يصل تيورياقولوف إلى هذا الاعتراف بمنجزاته بسهوله، فرغم أن الدرجة الدبلوماسية الجديدة في حد ذاتها قد فتحت أمامه الأبواب إلى أعلى الدوائر في السلطة فإنها لم يكن بمقدورها أن تسمح له بالتبسط في التعامل مع الملك وأقرب ذويه بما فيهم ملك المستقبل الأمير فيصل، والمراسم وحدها لم تكن كافية لكسب ودهم الشخصي، لذلك كان الأمر يتطلب منه التحرك على مختلف الأصعدة، مثل إيجاد «مدخل إلى العرش» من خلال أعضاء الحكومة وتقديم الهدايا لهم أنفسهم وعلاج أفراد أسرهم في العيادة التابعة للبعثة، ناهيك عن ضرورة المداومة على التغلب على النفوذ البريطاني الذي تشكّل على مدار عقود طويلة.

وكان يوسف ياسين من مستشاري الملك ذوي النفوذ، وقد أجرى

تيورياقولوف لقاء معه نسقه له فؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة الذي نشأت بينه وبين تيورياقولوف منذ البداية علاقات طيبة وعلاقات عمل وتفاهم كامل عمليا. وبالمناسبة كان فؤاد حمزة هو الذي أشار على تيورياقولوف المبادرة بزيارة شكلية مبدئية غير ملزمة بأي شيء "إلى الملك تعبيرا عن الود والتقدير"، أما المحادثات الشاملة والمفصّلة مع الملك فتؤجل بعد لقاء يوسف ياسين.

كان هذا اللقاء مع مستشار الملك يمثل أهمية كبرى بالنسبة لمستقبل عمل تيورياقولوف بالكامل في المملكة العربية السعودية، ولذلك أبلغ لجنة الشؤون الخارجية بتفاصيلها بالكامل حيث يقول: "بعد المقدمات والشكليات التي لا مفر منها في أول تعارف، نقلت له تحيات حكيموف وأسفه على عدم تمكنه من زيارته شخصيا «بسبب ضيق الوقت»، بعدها أعلنت أنني تمشيا مع التقليد الذي كان قائما بينه وبين حكيموف سأتحدث معه عن قضايانا، وأنني أعوّل في ذلك على إخلاصه الذي عهدناه منه تجاه الاتحاد السوفيتي، وحديثي في كل مرة سيكون صريحا ودون رسميات، فليس هناك طريقة أخرى لمعالجة قضايانا. وقد رد على ذلك باستعداده للتعامل بهذه الطريقة.

وعندئذ بدأت من تاريخ العلاقات السوفيتية الحجازية، ولخصت مبادئ سياستنا الخارجية خاصة تجاه ابن سعود، وأشرت إلى تعاطف الحكومة والرأي العام في الاتحاد السوفيتي مع كفاح ابن سعود من أجل حرية وحضارة بلاده، ثم ذكرت أن المرحلة الأولى من العلاقات السوفيتية الحجازية ولّدت لدينا الكثير من الآمال. بعد ذلك لخصت له تدهور معاملة الحكومة الحجازية

لنا ولمؤسساتنا التجارية شيئا فشيئا، مدللا على ذلك بالأمثلة (من قبيل المقاطعة التي شارك فيها رجال الهيئات المختلفة، وإلقاء القبض على أعضاء مؤسسة «روسوترك» وترحيلهم... إلخ)، ثم انتقلت للحديث عن الفترة الأخيرة فذكرت أن تجارتنا قد وُضِع لها نظام استثنائي لا تطبقه الحجاز على أي دولة أجنبية أخرى، وقلت بالنص: "نحن، مثلنا مثل غيرنا، ننظر إلى هذا النظام على أنه حظر فعلي على تجارتنا رغم حرية التجارة في البلاد. وفي النهاية هذا النظام لا يتوافق سواء مع مصالح الاتحاد السوفيتي أو الحجاز وذلك بالنسبة للاستقلال الاقتصادي في الحجاز، ونحن نرى أنه لا يخدم مواصلة تنمية العلاقات بيننا، وموسكو في حيرة، ونحن نتساءل: وماذا بعد؟ فبدلا من فرض هذا النظام كان بإمكان الحكومة الحجازية أن تخبرنا أولا بالاعتبارات التي تدعو لهذا، وأن تحاول تسوية هذه القضايا عن طريق التفاوض وتبادل الآراء". بعد ذلك انتقلت إلى تصريح فؤاد حمزة حول استعداد الملك للتفاوض وموقفنا من هذا التصريح، وختمت كلامي بالحديث عن موضوع المقابل.

أما يوسف ياسين فقد بدأ حديثه بأن الملك كان دائما ولا يزال يقدّر حق التقدير صداقته مع الاتحاد السوفيتي والسياسة الحكيمة التي تنتهجها الحكومة السوفيتية، وأن مما بعث على الارتياح الكبير لدى الملك هو عدم تمسك الحكومة السوفيتية بحقوقها في اللحظات العصيبة التي مر بها، وقيامها بإرسال البضائع المخصصة للحجاز إلى اليمن. كذلك أشاد الملك بإخلاص السوفيت في صداقتهم، وصرح ياسين بالقول: "نحن ندرك أيضا تمام الإدراك طابع مناهضة الإمبريالية الذي يميز السياسية السوفيتية،

فنحن على مدى سنين طويلة لمسنا ولا نزال نلمس روح الصداقة التي تتعامل بها الحكومة السوفيتية مع دول الشرق. وبحكم علمي بسياسة عاهلنا يمكن أن أؤكد لسيادتكم أن كافة الظواهر السلبية القائمة هي ظواهر مؤقتة، وسيتم قريبا تسوية كافة قضايا العلاقات الثنائية بيننا بما يرضي الطرفين. ومع ذلك يجب أن أطلع سيادتكم على الوضع القائم لدينا، كل ما في الأمر أننا ليس لدينا حدود مشتركة مع الاتحاد السوفيتي، وتفصلنا عنه مسافة كبيرة، ونحن هنا محاطون من جميع الجهات بأملاك إنجلترا وقواتها، وهذه الظروف وهذا البلد يفرض على الملك الاضطلاع بمهام ثقيلة للغاية، فالملك يأخذ في الاعتبار كل هذه الظروف ويتخذ بعض الخطوات التي تمليها عليه سلامة هذا البلد. وأنا متفق مع سيادتكم في تفسيركم لمسألة المقابل. وفي الختام أؤكد لسيادتكم مجددا إخلاص الملك وتقديره الكبير للسياسة السوفيتية وأعلن بشكل قاطع أن القضايا التي تهمكم ستجد حلا في القريب".

وبما أن ياسين كان مرشحا في ذلك الوقت لشغل منصب وزير خارجية المملكة فقد أبدى بطبيعة الحال اهتمامه بالوضع الدولي للاتحاد السوفيتي، وخاصة العلاقات السوفيتية الفرنسية والسوفيتية الألمانية، فقدم له تيورياڤولوف الإيضاحات اللازمة في هذا الشأن مركزا من جديد على استعداد الاتحاد السوفيتي لتقديم العون للملك إذا دعته الضرورة لذلك، بأن يقوم مثلا بدور الوساطة.

وفي ذلك الوقت كان التوتر على أوجه في العلاقات بين المملكة العربية السعودية واليمن بسبب النزاعات الحدودية، وقد تطرق يوسف ياسين إلى

هذا الموضوع بشكل عام، وتعليقا على ذلك أشار تيورياقولوف من جانبه بالقول: "بحكم علمي بالسياسة العامة للجنة الشؤون الخارجية صرحت بأننا لا يمكننا الترحيب بالتقارب بين الحجاز واليمن إلا إذا رأينا في ذلك ضمانا لنجاح الملك ابن سعود والإمام يحيى، وأنه إذا احتاج الملك مستقبلا إلى خدماتنا فإن حكيموف الذي يعرفه الملك جيدا وأنا سيسعدنا تقديم خدماتنا له على صعيد التقارب الحجازي اليمني. وقد أعرب ياسين عن شكره قائلا إنه سينقل إلى الملك تصريحي هذا الذي ينم عن التوجهات الإيجابية في سياستنا".

ومما كان له أهمية كبرى في تدعيم علاقات تيورياقولوف بالأسرة المالكة هو أنه كان يلتزم بتعاليم الدين الإسلامي الحق، مما فتح أمامه الباب على مصراعيه لزيارة مكة، فبالفعل في الوقت الذي كانت البعثات الدبلوماسية تتخذ من جدة مقرا لها كان القصر الملكي يتواجد في الغالب في الرياض ومكة، مما كان يجعل الاتصال المباشر مع الملك ودائرته أمرا غاية في الصعوبة بالنسبة لغالبية الدبلوماسيين الغربيين، حتى أن بعضهم كان يضطر لانتظار الزيارات القليلة التي كان يقوم بها الملك إلى جدة، بينما كان بعضهم الآخر -من أمثال فيلبي الذي سبق ذكره- يعتنقون الإسلام، وهذا الأمر لم يكن ليمر على تيورياقولوف دون أن يثير فضوله، فكتب يقول: "بعد أن اعتنق فيلبي الإسلام غادر إلى مكة، وبعد أن أدى المناسك في الحرم واصل طريقه إلى الطائف، واستقبله أصدقاؤه بحفاوة... والآن يجلس في مكة بشكل دائم، في دائرة الملك، وهناك شائعات تقول إنه يحاول الحصول من الملك... على امتياز

لبناء محطة كهرباء، وأن لندن تعد على حد زعمه قرضا للملك يقدر بثمانمائة ألف جنيه". فعلا كان الأمر يتطلب كفاحا جادا ودؤوبا من أجل كسب ود الملك.

ومع ذلك كان الملك يدرك جيدا ذلك الدور الذي أوكلته لندن إلى فيلبي، والذي حاول فيلبي نفسه جاهدا القيام به في الحجاز. وقد قال أحد المقرّبين من ابن سعود إن "الملك يحب السلطة، بينما يحاول فيلبي التأثير على سياسة الملك مثيرا بذلك جنونه، ونتيجة لذلك يلاحظ في الفترة الأخيرة حرص الملك على الابتعاد عن فيلبي وإبعاد فيلبي عنه، علاوة على ذلك أثار ظهور فيلبي في دائرة الملك المخاوف لدى المقرّبين من إمكانية فقدانهم لمكانتهم، وهذا أيضا كان له دوره في تدهور مكانة فيلبي". وقد أدى ضعف نفوذ المبعوث الإنجليزي، وكذلك شَغْل تيورياقولوف - في هذا التوقيت بالذات - منصب عميد الدبلوماسيين الشرفي إلى زيادة تقرّب المندوب السوفيتي من الأسرة المالكة.

وقد حاول تيورياقولوف استغلال كل الفرص الممكنة للالتقاء بالملك والأمير فيصل، ولذلك ليس من قبيل المصادفة أن نقرأ في يومياته ما يأتي:

"في مكة زرت الأمير فيصل لأبحث معه النظام المفروض على التجارة السوفيتية في الحجاز، واستندت في ذلك إلى تصريح فؤاد حمزة... ورد الأمير بأن موقف الملك المبدئي وحكومته من هذه القضية هو في صالحنا، وأنه ليس ثمة على الإطلاق ما يعوق إلغاء هذا النظام، وفي الوقت نفسه أشار الأمير إلى ضرورة الحصول على أوامر نهائية من الملك بهذا الشأن، ووعد بإبلاغي فور الحصول على تعليمات الملك".

وهذه مقتطفات من يوميات عضو البعثة:

"جرى احتفال في وادي فاطمة، بين مكة وجدة، دُعِي إليه رؤساء القنصليات والبعثات الدبلوماسية. وألقى نذير تيورياقولوف كلمة ترحيب باللغة العربية نيابة عن أعضاء السلك الدبلوماسي، ثم تحدث بعده بوند باللغة الإنجليزية"... "غادر المندوب المفوض وسكرتير البعثة إلى مكة لتسليم أوراق الاعتماد، وعادا ليلا"... "تم إرسال مائة بطاقة معايدة (باسم المندوب المفوض وسكرتير البعثة) إلى الأصدقاء والمعارف في مكة وجدة بمناسبة حلول العيد عند المسلمين"... "وصل الملك إلى جدة وبعد الظهر قام باستقبال المندوبين الأجانب، وكان أول الزائرين المندوب السوفيتي يرافقه سكرتير البعثة والمترجم والدكتور موشكوفسكي"... "غادر المندوب المفوض إلى مكة"... إلخ.

ونلاحظ بالمناسبة أن تواجد الأطباء السوفيت في المملكة وعملهم المثمر، الذي كان لتيورياقولوف أيضا باع طويل فيه، قد أسهم بلا شك إسهاما إيجابيا في تدعيم علاقات تيورياقولوف الشخصية مع «الأعيان» وأعضاء الأسرة الملكة، فقد نجح الدكتور موشكوفسكي كعالم في البكتريولوجيا واختصاصي في الملاريا في إقامة علاقات عمل مع المسؤولين عن الصحة والأطباء في الحجاز الذين استفادوا منه كثيرا في إطار المساعدة على بدء العمل في مجال البكتريولوجيا في جدة، كما كان يعالج الأمير فيصل وعددا من المسؤولين السعوديين من الملاريا، كذلك نال الدكتور جوكوف خوفانسكي وطبيب الأسنان ميرزون شهرة كبيرة ومكانة لدى أرفع الشخصيات في المملكة العربية السعودية، وكان ميرزون طبيبا متمرسا يجمع بين مهارات طبيب

الأسنان واختصاصي تركيب الأسنان الصناعية وفني أطقم الأسنان، وهذا النوع من أطباء الأسنان كان عملة نادرة في المملكة، وكان الإقبال عليه كبيرا للغاية، لاسيما أنه كان يؤدي عمله - حسبما يقول تيورياقولوف - "بمثالية واجتهاد، وكان يعالج الأوروبيين والعرب على حد سواء، كما كان اختصاصي الأسنان المتمرس الوحيد في المملكة الذي يتقن الأساليب الحديثة في علاج وتركيب الأسنان، وقد تفوّق على الأطباء السوريين والمحليين في هدوء، حيث كان «المصابون» من جراء علاج السوريين والسعوديين دائما ما يلجؤون إلى ميرزون". ولكن الأهمّ من ذلك هو ظهور الطبيبات في البعثة السوفيتية فيما بعد، حيث أصبح بإمكان سيدات الأسرة المالكة أن يتلقين أيضا علاجهن.

أما تبادل الرسائل بين الملك والمندوب السوفيتي بعد عودته من إجازته فكان ينم عن ودّ ما بعده ودّ، فقد كتب تيورياقولوف إلى موسكو يقول: "أرسلت برقية إلى ابن سعود هذا مضمونها: إلى صاحب الجلالة الملكية. لقد وصلت إلى جدة ويسعدني الحضور قريبا لتقديم فروض التقدير والاحترام". وفي اليوم نفسه وبعد نحو ساعتين أو ثلاث من إرسال برقيتي وصلني ردّ الملك: "جدة. إلى سعادة المندوب المفوض للاتحاد السوفيتي. نشكركم ونعرب عن سعادتنا بسلامة وصولكم. ونحن مستعدون لتحديد موعد للقائنا بعد وصول سيادتكم إلى مكة. عبد العزيز". وأبلغ تيورياقولوف موسكو بأن مثل هذا الرد يعني دعوته إلى مكة، "وسنرى بم سيأتي لنا كل هذا".

إلا أن كل ما سبق ذكره كان رغم أهميته مجرد خلفية وإعداد للمحادثات المباشرة مع الملك آل سعود التي كانت متعددة، وتناولت كافة جوانب العلاقات

السوفيتية، وأصبحت صريحة وبناءة أكثر فأكثر، وقد أبلغ تيورياقولوف موسكو في تقاريره بأدق تفاصيل هذه المحادثات بنغمة لا تخلو من الفخر بوصوله إلى هذا المستوى من التفاهم المتبادل مع رأس الدولة التي يعمل بها. وبطبيعة الحال لم يكن كل شيء سلسا في التفاوض بشأن قضايا التجارة وإلغاء «النظام الخاص»، إلا أن ودّ الحوار مع الملك السعودي قد سمح للمندوب السوفيتي أن يدافع عن وجهة نظر حكومته بشكل صريح.

وقد أشار تيورياقولوف في تقاريره إلى موسكو صراحة إلى أن لقاءاته وحواراته مع يوسف ياسين ثم مع فؤاد حمزة كان لابد منها قبل هذا اللقاء. ولولاها لما أقدم على المحادثات مع الملك. وكتب يقول: "استقبلني الملك بلطف شديد، وحضر اللقاء فؤاد حمزة والرفيق تويميتوف، وعرضت على الملك قضايانا بالطريقة نفسها التي عرضتها بها في محادثاتي مع يوسف ياسين، ولكن مع الفارق أنني في هذه المرة لطّفت من النغمة وركزت على الجوانب السياسية، وطرحت النقاط الثلاث نفسها وهي: التفاوض والوضع المؤقت والمقابل. ورد الملك بالقول إنه لم ينس أن الاتحاد السوفيتي كان أول من اعترف به وبدولته، وأنه كان دائما ولا يزال يقدر علاقاته مع الاتحاد السوفيتي وصداقته مع الحكومة السوفيتية حق التقدير، وأنه بالفعل قد أرجأ في يوم من الأيام موضوع التفاوض بشأن تسوية القضايا السوفيتية الحجازية لحين اللحظة المناسبة، والآن بإمكانه الإعلان أنه مستعد للمفاوضات مع الحكومة السوفيتية لبحث كافة القضايا وإبرام معاهدتين سياسية وتجارية.

ومادامت الحكومة السوفيتية مستعدة أيضا للبدء في المفاوضات إذن لم

يبق أمامنا سوى أن نبدأ فيها. وأنا لا أستطيع إلغاء النظام المفروض إلى أن يتم توقيع المعاهدة، لأن هذا من شأنه أن يلحق الضرر بمصالح بلادي، وأثناء المفاوضات سألخّص لكم اعتباراتي وسأشرح لكم موقفي، وسنناقشه معا. وقد حرصت على طرح هذه القضية أمامه، وأكدت مجددا أن موسكو في حيرة لأن تجارتنا لم تضر بهذا البلد في يوم من الأيام، وأن خصومنا هم الذين يشيرون إلى تجارتنا على أنها سبب الأزمة، إذ أننا في هذا العام لم نقم بعمليات تجارية ومع ذلك اشتدّت حدة الأزمة، فمن الواضح أن السبب في أزمة الاقتصاد الحجازي له جذور أبعد من ذلك. وقد أردت من الإشارة إلى هذا أن أتلمس الدوافع الرئيسة لدى الملك.

وبالفعل انتقل الملك إلى الصعيد السياسي، فصرح أن بلاده مرتبطة بالهند التي تقدم مجموعة من التسهيلات للتجار العرب، وأنا الآن مشغول بالدرجة الأولى بحل القضايا السياسية في العلاقات بين إنجلترا والمملكة، وأتفادى تعقيد هذه المسألة بالقضايا التجارية، رغم أن هذه القضايا تتطلب أيضا حلا عاجلا، فالسلع التي أطلبها لنفسي لا لأحد غيري من الكويت يُفرض عليها رسوم غير قانونية، وأنا أتغاضى عن هذا لأنني أرى أنه سيأتي اليوم الذي ستسوّى فيه هذه القضايا أيضا. وفي الختام ألمح الملك بشكل عابر إلى إمكانية حدوث أزمة في اليمن بسبب ظهورنا هناك واحتدام الصراع والتنافس بين القوى المختلفة.

وعند المغادرة قبض الملك على يدي التي مددتها لوداعه، وقال: "قريباً إن شاء الله سيصبح كل شيء على ما يرام" فشكرته. وقد استغرقت المحادثات ساعة كاملة".

ولم تقتصر اللقاءات مع الملك على مكة بل كانت تجري أيضا في جدة، حتى أن جدة قد شهدت في صيف عام ١٩٣١م عدة لقاءات من هذا النوع، وكان أحدها في السابع عشر من يونيو ١٩٣١م عندما علم تيورياقولوف بسفر آل سعود المزمع قريبا إلى الرياض فقرر أن يتحدث معه "عن القضايا التي تشغل اهتمامنا، وقد أعلن فؤاد حمزة أنه لا يريد الحضور أو المشاركة في حواري مع الملك رغبة منه في إعطائي حرية التحرك، ولكني انطلاقا من الاعتبارات المعروفة صممت على ضرورة حضوره. وقد حدث أن جلس فؤاد حمزة قليلا أثناء اللقاء ثم تركنا.

وطرحت أمام الملك قضايانا الرئيسة، وهي المعاهدة السياسية والتجارية وإلغاء الحظر المفروض على التجارة السوفيتية، وقد راوغ الملك في رده حيث صرح بأن العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والحجاز حميمة للغاية لدرجة أنها لا تحتاج بتاتا إلى تسجيلها في معاهدة، وهو يدرك جيدا ويقدر صداقة الاتحاد السوفيتي، فهي صداقة عزيزة عليه للغاية لأنها لا تقوم على أي أطماع، وقال الملك إنني أعتقد أنه إذا جاءت أوقات عصيبة فإن الاتحاد السوفيتي سيكون هو درعي الواقي"، "أما فيما يخص المعاهدة التجارية فإن وقتها لم يأت بعد"، فالحجاز لم تبرم بعد أي معاهدة تجارية مع أي دولة ولذلك فهو يجد في هذه المسألة بعض الصعوبات، وعلى أي حال فإن كافة المسائل التي من شأنها أن تهم الجانبين ستجد بالتأكيد حلا مرضيا، ولكن لا بد من الانتظار بعض الوقت.

وأجبت بما معناه أننا لم نبدأ التفاوض في هذه القضايا مع حكومته إلا

بعد موافقتها على ذلك، فقد كنا نعتبر دائما أن توقيت هذه المفاوضات لابد أن يتوافق مع مصالح وخطط الحكومة الحجازية، وإذا كنا نطرح هذه القضايا فإن ما يدفعنا إلى ذلك هو صالح الجانبين، فتعزيز علاقات الصداقة بين البلدين وتدعيم المكانة الدولية للحجاز في عيون العدو قبل الحبيب قد يكون بُعدا لا يمكن تجاهله. وخلال المفاوضات طُرِحَت مسألة التعويضات، وأنا أرى أن هذه القضية من السهل حلها من خلال التقارب والتعاون الحميم، مثلها في ذلك مثل العديد من القضايا الأخرى التي تتضمنها العلاقات بين البلدين، وإذا كنت قد طرحت أمامه هذه القضايا فإن هذا كان انطلاقا من اقتناعي الراسخ بأن هذا التعاون سيأتي بنفع كبير على الحجاز، بما في ذلك تعزيز اقتصاد هذا البلد وسياسته، ولعل من الأفضل أنه لا داعي إطلاقا للحديث عن أهمية الصداقة معنا بالنسبة له، والتي تكمن في أنها لا تتضمن أهدافا سياسية قد تأتي بالضرر. وشكرني الملك وانتهى الحوار على ذلك".

إن بعض التحفظ الواضح في نهاية هذا الحوار والناتج عن صعوبة معالجة المشاكل القائمة أمام البلدين قد تم تعويضه جيدا، وذلك بعد مرور بضعة أيام لا أكثر، وبالتحديد في الثامن والعشرين من يونيو ١٩٣١م في مكة، حيث ذهب نذير تيورياقولوف في الرابعة صباحا لوداع الملك الذي كان عائدا إلى الرياض، وكتب تيورياقولوف واصفا هذا اللقاء: "كان مبنى «الحميدية»، مقر نائب الملك (في مواجهة الكعبة)، مليئا بممثلي الهيئات والبلديات، وبعد أن زار الملك الكعبة للمرة الأخيرة جاء إلى مودعيه، وقد أعارني اهتماما أكثر من المعتاد، وانتهزت أنا هذه الفرصة كي أتمنى له سفرا سعيدا وأعرب عن

ثقتي بأن علاقاتنا معه ستتخذ طابعا أكثر ودا مما كانت عليه حتى هذه اللحظة، ورد الملك بالشكر".

وقد اتضح أن الملك كان على علم بالمفاوضات السوفيتية السعودية بشأن توريد المنتجات البترولية، بل كان أيضا معنيا للغاية بنجاحها كما سبق أن ذكرنا، فخمسون ألف صندوق من البنزين ومثلها من الكيروسين، التي كان يدور عنها الحديث، كان من شأنها أن تكفي الدولة السعودية مدة عام عمليا، وكان هذا الوقود ضروريا للغاية لأنه في ذلك التوقيت بالذات كان يتعين على الملك إعادة نشر القوات للقضاء على حركات التمرد التي كانت تندلع تارة هنا وتارة هناك من جانب قبائل البدو، أما الحكومة فكان يتعين عليها ضمان نقل البريد، ناهيك عن الزيادة في استهلاك البنزين نتيجة لدخول الشرق الأوسط عصر السيارات، أضف إلى ذلك أن قيادة الدولة كانت تحصل على كمية لا حصر لها من السيارات بالنظام الآجل، في الوقت الذي كان الموظفون لا يحصلون على رواتبهم لشهور في ظل الأزمة المالية العالمية التي أدت إلى توقف تدفقات الخزانة.

وكان من المفترض أن تصبح قضايا الاستمرار في توريد المنتجات البترولية موضوعا للتفاوض أيضا خلال زيارة الأمير فيصل للاتحاد السوفيتي، تلك الزيارة التي يمكن اعتبارها من أكبر الإنجازات التي حققها تيورياقولوف خلال عمله في منصب المندوب المفوض، ولم يكن ذنبه أن القيادة السوفيتية لم تخرج بكل الفوائد الممكنة من هذه الزيارة، التي تعد عن حق زيارة تاريخية، فبعد عام من هذه الزيارة -حسب تقرير تيورياقولوف- أصدر

مجلس الوزراء في المملكة بالاشتراك مع مجلس الدولة قرارا "بإعلان سمو الأمير سعود النجل الأكبر لجلالة الملك وليا للعهد في المملكة العربية السعودية، وجرت مراسم البيعة في يوم الإثنين العشرين من محرم عام ١٣٥٢هـ (الموافق الخامس عشر من مايو عام ١٩٣٣م)، وقد غادر سمو الأمير فيصل على رأس وفد مكلف بإبلاغ صاحب الجلالة الأمير سعود بتنصيبه وليا للعهد. ويسرني أن أبلغكم بانتهاء عملية تنصيب الأمير سعود وليا للعهد على النحو الذي ذكرته". ومرت سنوات وأصبح فيصل نفسه وليا للعهد.

وفي واقع الأمر لم تكن موسكو تستقبل نجل العاهل السعودي، الشاب البالغ من العمر سبعة عشر عاما والمكلّف من قبل والده بإجراء المفاوضات بشأن الحصول على قرض سلعي ضخم، وإنما كانت هذه زيارة رسمية لملك المستقبل في دولة صديقة، وقد تعاملت موسكو مع هذا الحدث كما يجب، ولعل الدليل على ذلك هو برنامج الزيارة والمقابلات والمفاوضات التي أجراها الوفد، حيث تضمنت الزيارة لقاءات رسمية مكثفة إلى جانب برنامج ثقافي وترفيهي موسّع. وهذا نص برنامج الزيارة:

برنامج زيارة الأمير فيصل إلى الاتحاد السوفيتي

٢٩مايو: ٩,٤٥ صباحا استقبال الأمير بمحطة بيلاروسكو- بالتينسكي للسكة الحديد

١١,٣٠ صباحا مقابلة لدى الرفيق كالينين

١٢,٠٠ ظهرا زيارة للرفيق مولوتوف

١٢,٣٠-١,٣٠ ظهرا زيارات باللجنة

٢,٠٠ ظهرا إفطار يقيمه الرفيق كالينين

٥,٠٠ مساء الرد على زيارات الوفد

٧,٣٠ مساء غداء يقيمه الرفيق كريستينسكي

١٠,٠٠ مساء حفل استقبل تنظمه البعثات الدبلوماسية

٣٠ مايو: ١٢,٠٠ ظهرا جولة تفقدية بالكرملين

١,٣٠ ظهرا إفطار في سبيريدونوفكا

٣,٣٠ ظهرا زيارة لميدان سباق الخيل

٧,٣٠ مساء مسرح البولشوي (حضور عرض «دون كيشوت»)

٣١ مايو: ١٠,٠٠ صباحا زيارة إلى معهد الهيدروديناميكا الجوية

١١,١٥صباحا زيارة للمطار

١,٣٠ ظهرا إفطار في الدار المركزية للجيش الأحمر

٥,٠٠ مساء مجلس مدينة موسكو. حفل شاي

٧,٣٠ مساء مسرح البولشوي (حضور عرض «كارمن»)

١ يونيو: ١٠,٠٠ صباحا لجنة الطاقة السوفيتية

١١,٣٠ صباحا زيارة مصنع ستالين لصناعة السيارات

٢,٠٠ ظهرا أكاديمية تيميريازيف (إفطار وجولة بالأكاديمية) ومعهد دراسات الثروة الحيوانية ومعمل الوبر

٥,٠٠ مساء إستاد دينامو

٢ يونيو: ١٠,٠٠ صباحا زيارة إلى معسكر وبرنامج عمل

٣ يونيو: ١٢,٠٠منتصف الليل السفر إلى مدينة لينينغراد

٤ يونيو: ١١,٠٠ صباحا استقبال رسمي في لينينغراد

١٢,٠٠ ظهرا جولة بالمدينة

١,٠٠ ظهرا إفطار بالفندق

٢,٠٠ ظهرا زيارة إلى «سمولني»

٣,٣٠ ظهرا زيارة لمصنع «كراسنايا زاريا» وتقديم هدية للأمير.

٥,٠٠ مساء جولة بنهر «نيفا»

٦,٣٠ مساء غداء

٧,٣٠ مساء مسرح

٥ يونيو: ١٠,٠٠ صباحا معهد النباتات

١,٠٠ ظهرا إفطار بالفندق

٢,٠٠ ظهرا زيارة إلى «قرية الأطفال» وحفل شاي بالقرية

٨,٠٠ مساء مأدبة بالمدينة

١٢,٠٠منتصف الليل السفر إلى أوديسّا

٧ يونيو: السفر من أوديسّا إلى تركيا

وانطلاقا من رغبات الجانب السعودي بدأ تيورياقولوف بالتعاون مع الإدارة في موسكو اتخاذ كافة الاستعدادات لهذه الزيارة، محاولا توفير كافة سبل الراحة لإقامة الوفد رفيع المستوى في الاتحاد السوفيتي، وبعد وصول الأمير فيصل أصدر كاراخان نائب رئيس اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية تعليمات واضحة إلى مرءوسيه تتضمن اقتراحات باتخاذ الإجراءات الآتية:

"١- إرسال عربة قطار صالون إلى محطة نيغوريلوفو في الموعد الذي سيبلغكم به الرفيق فلورينسكي (ما بين يومي ٢٦ و ٣٠ مايو، ويرسل مع العربة نادل وطبّاخ، وتزود العربة بالمأكولات للعشاء والإفطار (لعدد خمسة من العرب وأربعة من المرافقين واحتياطيا لفريق الحراسة)، والتأكد من قَطْر هذه العربة بالقطار القادم من نيغوريلوفو إلى موسكو.

٢- تزيين محطة بيلاروسكو - بالتينسكي للسكك الحديدية بالأعلام الحجازية والسوفيتية، وكذلك لافتة «أهلا وسهلا» باللغة العربية.

٣- تجهيز الطابق الأخير بالكامل في سبيريدونوفكا ١٧ لإقامة الضيوف وتوفير الخدمة والمأكولات (لعدد خمسة أفراد)، وتوفير غرفة للرفيق حكيموف ومكان احتياطي لفريق الحراسة، ويجب أن تعتنوا جيدا بفريق الحراسة وسائقي السيارتين اللتين ستكونان في خدمة الوفد، ورفع العلم الحجازي فوق المبنى.

٤- فيما يخص الأطعمة: يجب عدم تقديم النبيذ والسجائر ولحم الخنزير واللحوم الحمراء، ويجب أن يتكون الطعام بشكل أساسي من الأرز ولحوم الدجاج والطيور البرية ومنتجات الألبان والخضراوات والفواكه، ولكن لابد مع ذلك من توفير احتياطي من النبيذ والكونياك والسجائر سواء في عربة القطار أو في سبيريدونوفكا، ولا تقدم إلا بناءً على طلب الضيوف.

٥- تنظيم غداء في اليوم الثاني بعد وصول الوفد لعدد ٢٥ - ٣٠ فردًا، ثم بعد ذلك حفل استقبال لعدد ٢٥٠ فردًا.

٦- طبع بطاقات دعوة باسم الرفيق كريستينسكي.

٧- تجهيز الهدايا التالية: حافلة، محطة اتصالات، فرو الثعلب الفضي، بذلة قوقازية، وتؤخذ التعليمات بهذا الشأن من إدارة الشرق الأولى. كما يجب تجهيز أربعة ألبومات تحتوي على صور زيارة الوفد.

٨ - توفير عربة قطار صالون يواصل فيها الوفد جولته بالاتحاد السوفيتي.

٩- تزويد المدن التي سيزورها الأمير بالأعلام (حسب تعليمات الرفيق فلورينسكي).

١٠- إعداد وسيلة نقل بحرية للسفر إلى اسطنبول أو بهلوي حسب تعليمات الرفيق فلورينسكي".

وخلال الإفطار الذي أقامه كالينين في التاسع والعشرين من مايو عام ١٩٣٢م ألقى الأمير فيصل خطابا رسميا أشار فيه ضمنا إلى أن عمل نذير تيوريافولوف في المملكة العربية السعودية قد آتى ثماره، وكانت كل كلمة في الخطاب يتخللها شكر للاتحاد السوفيتي! حيث قال فيصل:

"سيادة الرئيس!

أشكر خالص الشكر لسيادتكم كلمات الترحيب التي وجهتموها إليّ بمناسبة وصولي إلى هذا البلد، كما أشكركم سيادة الرئيس وأشكر رجال الدولة على الاستقبال الكريم الذي أوليتموه لي.

وإنه لمن دواعي سعادتي أن أزور الاتحاد السوفيتي الذي تربطه مع دولة مولاي صاحب الجلالة الملك أمتن أواصر الصداقة، ولا شك أن هذه الزيارة ستعمل على تعزيز أواصر الصداقة في المستقبل، أما العلاقة الشخصية فأتمنى أن تساعد كثيرا في حل القضايا التي تهم الجانبين بروح الود والإخلاص.

كما أرى من الضرورة أن أشكركم سيادة الرئيس أيضا على المشاعر الطيبة التي تكرمتم وأعربتم عنها تجاه صاحب الجلالة الملك وبلده وشعبه، كما أنني تلقيت بمزيد من السعادة تصريح سيادتكم بأنكم تتابعون باهتمام بالغ التقدم الاقتصادي والحضاري الذي تشهده بلادنا، وأرجو من سيادتكم أن تزيدوا في المستقبل من اهتمامكم هذا، وأن يعود هذا بالفائدة على الجانبين.

إن الاستقبال الرائع الذي لاقيته في بلدكم والمعاملة الحارة لي وللوفد المرافق قد تركت لديّ أطيب الانطباعات، وأنا واثق من أن ذكرى هذه الزيارة ستساعد على تعزيز علاقاتنا المتبادلة، كما ستظل من أطيب الذكريات.

مرة أخرى أشكركم على تعاملكم الصادق وأتمنى لكم -سيادة الرئيس- ولشعوب الاتحاد السوفيتي الازدهار والسعادة".

أما رسالة الملك ابن سعود نفسه التي وجهها إلى ميخائيل كالينين وسلّمها فيصل فكانت أسمى وأهم، وهذا نصها:

"إلى حضرة صاحب الفخامة رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الأفخم:

صديقنا الجليل:

بعد الإعراب عما يليق بفخامتكم من التحيات والسؤال عن صحتكم الغالية يسرّنا أن نحيط علم فخامتكم أننا نظرا لرغبتنا الصادقة في تقوية أواصر الصداقة القائمة لحسن الحظ بين بلدينا وتعبيرا عن عزمنا توطيد وتقوية هذه العلاقات الودية رأينا أن نوفد إلى فخامتكم بعثة دبلوماسية فوق العادة برئاسة نجلنا الأمير فيصل ليعرب بالنيابة عنّا لفخامتكم عن مشاعر الإخلاص والود الصادق من جانبنا. وإننا لنرجو فخامتكم أن تثقوا في كل ما يبلغكم به سموه نيابة عنّا، وأن تتقبلوه بكل ثقة لاسيما حينما يؤكد لكم عميق تقديرنا وعظيم اهتمامنا بدوام صحة ورفاهية فخامتكم وشعبكم النبيل.

وفي الختام نسأل لفخامتكم دوام الصحة والسعادة".

وبالطبع تضمنت كلمة ميخائيل كالينين التي رد بها على الأمير فيصل اعترافا ضمنيا بأفضال تيورياقولوف، حيث جاء فيها أن "العلاقات بين بلدينا ظلت تتسم على مدار سنوات بطابع الود والإخلاص الصادق، وزيارتكم للاتحاد السوفيتي تعد بلا شك واحدة من أطيب علامات الصداقة التي تربط بين بلدينا، وإنه لمن دواعي سروري الكبير أن أرحب بكم في عاصمة الاتحاد السوفيتي، إذ أنكم تمثلون بشخصكم حكومة شعب عربي استطاع بعد الحرب العالمية أن يحصل على استقلاله بل ويدعمه بفضل السياسة الشجاعة وبعيدة النظر التي ينتهجها قادته، ذلك الاستقلال الذي يعد مقدمة لا غنى عنها للتنمية الاقتصادية والحضارية في البلاد.

إن حكومة الاتحاد السوفيتي وشعوبه يتابعون باهتمام شديد التطور الناجح في سياسة الحكومة التي تمثلونها والموجهة إلى الحفاظ على استقلال الشعب العربي ورفاهيته الاقتصادية والحضارية. وإنني إذ أعرب عن ثقتي بأن الصداقة بين بلدينا تلبي تماما مصالح شعبينا ومنفعتهما المشتركة، وزيارتكم للاتحاد السوفيتي ستساعد -دون شك- على مواصلة توطيد هذه الصداقة".

وإلى جانب الأمير فيصل رئيس الوفد شارك في المفاوضات من الجانب السعودي أعضاء الوفد المرافق له وعلى رأسهم فؤاد حمزة، وفي مسرح البولشوي وأثناء عرض أوبرا «حلاق إشبيلية» دار حوار بينه وبين كاراخان، ربما كان أكثر الحوارات أهمية لمواصلة تطور العلاقات السوفيتية السعودية، فعلى حد قول كاراخان نفسه راح فؤاد حمزة يبرهن على أنه في حال تقديم القروض السوفيتية للحجاز "ستلقى بضائعنا رواجا بفضل سمعة الحكومة، فالحكومة نفسها هي التي ستعطي دفعة للبضائع السوفيتية، والحجازيون يودّون أن يشتروا منا القمح والسكر والكيروسين والبنزين والثقاب والسلاح".

ومن الواضح أن القضايا التي طرحها حمزة كانت سابقة لأوانها إلى حد ما من حيث معدلات التطور في العلاقات السوفيتية السعودية، فمشكلة القرض كان أولى أن تُطرح "بعد تطبيع العلاقات، حيث يصعب في الوقت الراهن إقناع الحكومة بضرورة التجاوب مع الحكومة الحجازية في ظل عدم مساواتنا مع الآخرين اقتصاديا وسياسيا، فأفكار فؤاد حمزة بها شئ من الصواب، ولكن لكي تتحقق خططه لابد من تهيئة الظروف، حيث إننا ليس

لدينا مصالح خاصة في الحجاز، ودعمنا للحكومة الحجازية إنما ينطلق من المبادئ العامة لتعاطفنا مع استقلال دول الشرق، ويسعدنا أن الحجاز دولة مستقلة. كما أن مصالحنا التجارية في الحجاز ليست أيضاً على درجة عظيمة، ومن الصعب أن نشرح للحكومة أن منح القروض نابع في هذه الحالة من ظروف علاقاتنا المتبادلة".

وقد صرح فؤاد حمزة أنه شخصيا "يعتقد أيضا أن توقيع معاهدة سياسية سيكون من المفيد، وأنه أرسل برقية إلى الملك بذلك، ولكن هذه مسألة وقت، ففي البداية لا بد من تنمية التجارة ثم بعد ذلك خلال عدة شهور سيكون من الممكن إبرام معاهدة سياسية أيضا. والحكومة الحجازية متذبذبة أمام هذا التحول الكبير في العلاقات والذي ربما يترك أثرا سلبيا ويتسبب في المشاكل للحجاز، ولذا يتعين على الرفيق كاراخان إقناع حكومته بضرورة مساعدة الحجاز على الفور، على أن يتعهد الحجاز بتسوية القضايا التي تهم الاتحاد السوفيتي خلال فترة محددة، وربما يبلغنا الملك بأنه موافق من حيث المبدأ على إبرام معاهدة سياسية، ولكن هذا احتمال ضعيف، مما قد يرجع على الأقل إلى أن الملك لم يتم إبلاغه إلا بتصريح إليافا الذي أفاد بأنه لكي يتم الحصول على قروض لابد من توقيع معاهدة اقتصادية، ولكن إليافا قال إن هذا مجرد رأيه الشخصي وأنه سيسأل الحكومة، ونحن في انتظار قرار الحكومة، ونريد أن نعرف إذا كان إبرام المعاهدة الاقتصادية يُعد شرطا ضروريا للحصول على قروض أم لا. وبما أن الملك ينتظر منا إبلاغه بقرار الحكومة فإنه قد يتحفظ على عرض وجهة نظره بشأن إمكانية إبرام

الاتفاقية. وحمزة يدرك أن ثمة صعوبات كبيرة، ولكن يجب على الرفيق كاراخان إقناع حكومته".

وكان رأي الحكومة السوفيتية، الذي جاء على لسان كاراخان، واضحا، وهو أن تقديم القروض كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمعاهدة السياسية، و"اتفاقية القروض هي في واقع الأمر اتفاقية سياسية، فمن وجهة النظر التجارية يمكننا بيع سلعنا في الدول الأخرى، ولذا يجب علينا أن نشرح للحكومة الوضع كما هو موجود بالفعل، وأنا سأكون صريحا معكم تماما، فنحن بلد كبير ولدينا كثير من القضايا المهمة في مجال البناء الداخلي، ومن وجهة نظر السياسة الخارجية لا تبدي الحكومة اهتماما مباشرا إلا بالقضايا والدول التي تمثل بُعدا أمنيا، أما الجزيرة العربية فتقع بعيدا عنا ولا يوجد بها مصالح مباشرة، ولكن يوجد تعاطف وعلاقات حميمة. ورغم كل هذا ليس من السهل إقناع الحكومة بالانشغال بقضايا الحجاز، لأن ثمة قضية المعاهدة التي لم تجد تسوية بعد، فقد يقول أعضاء الحكومة : لنرجئ بحث هذا الموضوع إلى أن يتم حل مسألة المعاهدة".

وأعرب فؤاد حمزة عن أمله في أن تجد قضية المعاهدة حلا مناسبا، لأن الملك راغب في توسيع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، إلا أن كاراخان أراد أن يتحدث مع الأمير فيصل بعيدا عن فؤاد حمزة بهدف الحصول على تصور كامل عن موقف الأسرة المالكة (لاسيما أن ما نقله تيورياقولوف عن موقف الملك قد اختلف إلى حد ما عن عرض حمزة لهذا الموقف في موسكو)، وخلال زيارة الإستاد دعا كاراخان الأمير فيصل إلى مكتب الإدارة، بينما بقي فؤاد

حمزة في القاعة، ولكنه لم يكن يرغب قط في أن يترك الأمير بمفرده، كما كان يرغب في الإلمام بما يجري، ولذا بعد حين من الوقت شرع يستقصي عن مكان الأمير حتى توصّل إليه فدخل إلى الحجرة التي كان يدور الحديث بداخلها.

وهنا ظهر من جديد التباين بين وجهة نظر تيورياقولوف الذي كان يدافع عن جدوى ومستقبل العلاقات التجارية والاقتصادية بين الاتحاد السوفيتي والمملكة، وموقف اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية الذي جاء في تلك اللحظة على لسان كاراخان، حيث أعلن كاراخان للأمير فيصل أن الحكومة السوفيتية ترى عدم إمكانية منح قروض لحين تطبيع العلاقات، مؤكدا مع ذلك أن العلاقات السوفيتية الحجازية تظل على حميميتها، وطلب كاراخان من الأمير فيصل ألا يرى في ذلك أي تغيّر في مشاعر الود، مشيرا إلى أن مثل هذا التفكير سيكون في غير محله. كذلك شدد كاراخان على أن الجانب السوفيتي لا يصر مطلقا على سرعة التطبيع، فقد يكون لكل حكومة مشاكلها "ونحن لا نريد أن يدفع التطبيع الحكومة الحجازية إلى اتخاذ إجراءات قد تضر بمصالحها، ومع ذلك لا يمكن التطرق إلى أي حديث في موضوع القروض إلا بعد التطبيع السياسي"، رغم أن كاراخان نفسه قد لاحظ بعد عدة دقائق لا أكثر أنه "قد يتولّد انطباع بأننا نطلب تعويضا مقابل موافقة الحجاز على إبرام معاهدة سياسية".

وألمح الأمير فيصل منطلقا من موقف والده إلى أنه لا يمكن الإسراع في التطبيع وذلك لاعتبارات النظام السياسي، فهو يرى أن المساعدات

الاقتصادية من جانب الاتحاد السوفيتي من شأنها أن تعجّل بالتطبيع، ولكن الوفد غير مفوض لحل هذه القضية وسيقوم بإبلاغ الملك بكل شيء.

وردا على سؤال كاراخان بشأن المفاوضات مع الدول الأخرى أوضح فؤاد حمزة الذي ظهر في نهاية الحوار أن المفاوضات مع إيطاليا وفرنسا كانت تتناول القضايا السياسية والقضايا الاقتصادية في آن معا، وأن الملك سيكون من الصعب عليه تفهّم التحول في موقف الحكومة السوفيتية، فنذير تيورياقولوف قد أفاد - على حد زعمه - برغبة الحكومة السوفيتية في توقيع المعاهدتين السياسية والاقتصادية، والآن الحديث يدور عن المعاهدة السياسية فحسب، ورد كاراخان بأن المعاهدة التجارية شيء والقروض شيء آخر تماما.

وانتهي الحوار بطلب حمزة أن تغير الحكومة السوفيتية موقفها من مسألة القروض، ثم صرح حمزة بأنه أصبح في وضع غير لائق، لأن الجانب السوفيتي على حد زعمه قد «استفزه» للحديث عن القروض ثم غيّر موقفه. ويبدو أن فؤاد حمزة والأمير فيصل كانا كلاهما يخشيان «إثارة غضب» الملك، لأنهما كانا قد أبلغاه معلومات مليئة بالتفاؤل.

كان قرار الحكومة السوفيتية الذي تم إعلانه للسعوديين بالإستاد مفاجأة كبرى بالنسبة لهم، وتولّد لدى الوفد انطباع بأن الجانب السوفيتي يصر على الحصول على تعويض سياسي مقابل القروض، "وبالطبع ينبغي على الحكومة الحجازية أن توافق على تقديم هذا التعويض، ولكن لا يمكن القيام بهذا على الفور لاعتبارات في نظام السياسة الداخلية"، ولكن لو وافق الاتحاد السوفيتي

على التفاوض بشأن القرض لعجّل هذا بتوقيع المعاهدة السياسية، ولأعطى ورقة رابحة للغاية لأنصار تنشيط العلاقات بين البلدين، أما رفض الحكومة السوفيتية الحديث عن القرض فعلى العكس فقد يترك لدى الملك انطباعا غير طيب ويعطي الورقة الرابحة لأعداء تنشيط هذه العلاقات، ولهذا صرح الأمير فيصل بأنه باعتباره شخصيا من أشد المؤيدين لسرعة «التطبيع»، يأسف للغاية لهذه النهاية التي آلت إليها المفاوضات.

وكان تيورياقولوف قد أفاد قبيل زيارة الأمير إلى الاتحاد السوفيتي برغبة الملك في أن يلتقي فيصل بأحد رجال الدين الإسلامي، إلا أن موسكو لم تكترث كثيرا لهذه الرغبة، فهذا اللقاء قد تم الإعداد له احتياطيا، ولكنه لم يدرج بالبرنامج الرسمي للزيارة.

فقد قررت لجنة الشؤون الخارجية أنه في إطار مشاهدة معالم لينينغراد يمكن تمرير الأمير بجوار المسجد ليشاهده من نافذة السيارة، وأثناء المرور بجوار المسجد أشار المرافقون للأمير إلى المبنى معلّقين أنه يعد أجمل مسجد في الاتحاد السوفيتي، وعندما سأل الأمير عن تاريخ بناء المسجد والمهندسين الذين قاموا ببنائه والمعماري الذي وضع تصميمه رد المرافقون بأنهم ليسوا على علم بهذه التفاصيل، وإذا أراد الحصول على معلومات من هذا النوع فبإمكانه النزول من السيارة والدخول إلى المسجد ليحصل على معلومات مفصّلة، إلا أن الأمير لم يرغب في ذلك لأن مشاهدة المسجد لم تكن ضمن البرنامج الرسمي.

وهكذا قضت «البعثة الدبلوماسية فوق العادة» برئاسة الأمير فيصل نجل

الملك آل سعود في الاتحاد السوفيتي الفترة من ٢٩ مايو إلى ٧ يونيو عام ١٩٣٢م، حيث زار الوفد موسكو ولينينغراد، وفي السابع من يونيو غادر إلى تركيا. وخلال المفاوضات التي دارت في موسكو طرحت البعثة موضوع تقديم الحكومة السوفيتية قروضا سلعية للجانب السعودي بقيمة إجمالية مليون جنية إسترليني ولمدة عشر سنوات، وتم الرد على البعثة بما معناه أنه إلى أن يتم توقيع معاهدتي صداقة وتجارة ترى الحكومة السوفيتية من غير المناسب بحث هذا الموضوع. ومع ذلك تم الالتزام بما تتطلبه المراسم وأقر الجانبان بأن الزيارة كانت ناجحة للغاية... وقد بعث تيورياقولوف ببرقية من جدة إلى لجنة الشؤون الخارجية تتضمن أن "صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد يتقدم بالشكر إلى الحكومة السوفيتية على استقبالها الحميم للأمير فيصل".

وقد أسفرت الزيارة عن اعتزام «الجهات المتفاوضة العليا» "لإزالة كافة أشكال التمييز من العلاقات الاقتصادية بينها، وانطلاقا من هذا لن تتخذ هذه الجهات أي تدابير تشريعية أو إدارية من شأنها أن تضع بأي شكل من الأشكال بضائع الطرف الآخر أو شحناته أو مؤسساته التجارية أو تجارته بشكل عام في وضع أسوا بالمقارنة ببضائع كافة الدول الأخرى أو شحناتها أو مؤسساتها التجارية. كما تتعهد الجهات المتفاوضة بالمساعدة في تطبيق كافة التسهيلات لمواطني البلدين وفي كل ما يتعلق بالضرائب والرسوم الجمركية وذلك بما يتمشى واللوائح التشريعية المحلية، وتوافق الجهات المتفاوضة على البدء في أقرب وقت في التفاوض بشأن إبرام معاهدة تجارية بهدف تنمية وتوسيع العلاقات الاقتصادية بين البلدين".

كذلك أسفرت زيارة الأمير فيصل للاتحاد السوفيتي عن نتيجة أخرى وإنجاز جديد لنذير تيورياقولوف، وهو تركيب وتشغيل محطة اتصالات آلية في الطائف كان قد تم إهداؤها للأمير أثناء زيارته لمصنع «كراسنايا زاريا» للمعدات التليفونية في لينغراد، وقد اتضح أنها أول محطة من نوعها في الدولة السعودية، ولم تكن لدى البلاد أي خبرة في تركيبها وصيانتها، حيث أبلغ عبد الله كاظم مدير البريد والهاتف والبرق المندوب السوفيتي أنه هو والكوادر المحلية لا يمكنهم تركيب المحطة، وطلب إرسال مهندس، ولو لم يتمكن تيورياقولوف من التوصل إلى إيفاد أحد مهندسي مصنع «كراسنايا زاريا» ويدعى شيتوف إلى المملكة في عام ١٩٣٤م لظلت هذه المعدات،غالية الثمن، مهملة سنوات طويلة في أقبية القصر تتآكل من الصدأ.

وفي الرابع من يونيو قامت الحكومة السعودية بمعالجة كافة المسائل التحضيرية، حيث تم اختيار مكان لتركيب المحطة وهو مدينة الطائف، وعُرض على المهندس شيتوف القيام بتركيبها شخصيا وكذلك تنظيم دورات تدريبية تستمر كل منها مدة شهر لإعداد الكوادر للعمل بالمحطة، حتى أن تيورياقولوف حصل على تصريح بزيارة الطائف ولكن كمواطن عادي، لأن دخول الأجانب ذوي المناصب الرسمية إلى الطائف كان ممنوعا. وكان الجانب السعودي والملك شخصيا يولون أهمية كبيرة لتركيب المحطة، والدليل على ذلك أنه كما قال تيورياقولوف "عند دخولنا إلى الطائف كان في استقبالنا عبد الله كاظم ومساعده عبد الله الفرّاش رئيس البرق بالقصر الملكي، وكانا قد أوفِدا خصيصا لهذا الغرض، كما تم توفير ثلاثة منازل نختار منها أيها

نشاء، وقد أقمنا نحن في أحدها وخصصنا آخر (في وسط المدينة) لإقامة الدورات التدريبية".

وبدأت المحاضرات بالدورات في الحادي عشر من يونيو طبقا لبرنامج وضعه شيتوف، حيث كان يدرس المتدربون "مبادئ الهندسة الكهربائية ومحطات الاتصال اليدوية والمحطات الآلية، كما تضمن البرنامج محاضرات عملية. وقد تم تعيين عبد الله الفرّاش رئيسا للدورات، وكان نفسه من بين المتدربين. وقد وصل عدد المشاركين في الدورات إلى أحد عشر متدربا من موظفي البرق والهاتف، وتراوحت أعمارهم بين ١٨ و ٣٠ سنة وجمعيهم من عرب الحجاز. وإلى جانب المتدربين الأساسيين انضم فنيو تركيب الخطوط إلى التدريب العملي، كما حضر المحاضرات عبد الله كاظم مدير البريد والبرق. وكانت المحاضرات مكثفة وتجرى يوميا، ولكن الحكومة والمتدربين أنفسهم كانوا سعداء برفع كفاءة المشاركين بالدورات". وقد اتضح أن جميع المتدربين بلا استثناء لم يكن لديهم تصور عن تركيب المحطة وطريقة عملها، حتى أن شيتوف كان مضطرا لضم المتدربين إليه أثناء التركيب مدرجا هذا ضمن تدريبهم العملي.

وقد قام شيتوف عمليا بتركيب المحطة بمفرده وفي مدة قصيرة، وذلك بواسطة المعدات الإضافية التي أحضرها معه من الاتحاد السوفيتي، حيث قام بالربط بين الملك والحكومة بخطوط الاتصال الآلي بما في ذلك القصر الصيفي في الطائف. وهاك ما كتبه شيتوف نفسه في تقريره عن مأموريته: "... جرت أول مكالمة بالهاتف الآلي بين عاهل الدولة العربية السعودية

والرفيق نذير تيوریاقولوف المندوب المفوض للاتحاد السوفيتي، وكانت هذه المكالمة بداية لتشغيل المحطة".

وقد أبدى الملك منذ البداية اهتماما كبيرا بتركيب المحطة وكل ما يتعلق بهذه المسألة، حيث بعث إلى شيتوف بمدير البريد والبرق الذي كان يقدم تقريرا يوميا للملك حول سير العمل بدورات خبراء الهاتف وفنيي التركيبات من شباب المملكة. وقام شيتوف إلى جانب مهمته الأساسية بفحص السنترالات المحلية وإدخال التحسينات اللازمة عليها بناء على طلب عبد الله كاظم. ولعل هذه المبادرة من جانب تيوریاقولوف كانت واحدة من أولى تجارب إسهام الاتحاد السوفيتي في تقديم المعونة الفنية وإعداد الخبراء الأجانب، وقد توجت التجربة بالنجاح، وهو ما يتضح من رد الفعل العارم من قبل الملك ونجله فيصل اللذين انهالا بالشكر على هذه الهدية القيمة وإعداد الكوادر السعودية لخدمة المحطة سواء في الخطابات الرسمية الموجهة إلى المندوب المفوض أو الرسالة الموجهة إلى ليتفينوف، وهاهو المندوب المفوض يأتي بالنفع مجددا على القصر الملكي.

وفور انتهاء أعمال التركيب استقبل الملك كلا من تيوریاقولوف وشيتوف استقبالا مهيبا، وأهداهما "ساعات وملابس عربية" تقديرا لجهودهما. كذلك نال تيوریاقولوف ثناءً واجبا من رؤسائه، حيث وجهت لجنة الشؤون الخارجية مذكرة إلى أورجونيكيدزه رئيس لجنة الصناعات الثقيلة أشارت فيها إلى أداء تيوریاقولوف وشيتوف لمهمتهما بامتياز، كذلك جاء اسم تيوریاقولوف في الرسالة الخاصة التي وجهها ليتفينوف إلى أورجونيكيدزه. أما تيوریاقولوف

نفسه فقد رأى من الواجب أن يهنئ العاملين والعاملات بمصنع «كراسنايا زاريا» وكذلك أعضاء الإدارة بالمصنع على «نجاحهم»، فهم في الحقيقة يمكنهم الفخر بجودة إنتاجهم لأن المحطة بمجرد ضبطها في مكانها بدأت العمل على أكمل وجه رغم ظروف التخزين غير الملائمة بالمرة التي ظلت فيها على مدار عامين منذ إهدائها إلى الأمير فيصل.

لاشك أن التواصل الحميم وغير الرسمي الذي كان يقوم به تيورياقولوف مع الأسرة المالكة يبين أنه قد نجح في أن يستغل لأقصى درجة قدراته كدبلوماسي بارع، يدرك جيدا عادات وتقاليد المسلمين بل وقواعد اللعبة السياسية في الشرق العربي برمته، فالاتصال المباشر مع الملك آل سعود كان يتيح الفرصة للحصول على المعلومات من مصادرها الأولى، كما كان يسمح أيضا بإيجاد حلول فاعلة للقضايا العاجلة المتعلقة بالعلاقات الثنائية بشكل مباشر، ودون وسطاء.

أضف إلى ذلك أن لقاءات تيورياقولوف المنتظمة - والتي يحسد عليها - مع الملك وورثة عرشه، إذا أخذنا في الاعتبار خاصية البلد التي كانت تحد من دائرة اتصال الملك بالأجانب، أعطت إشارة واضحة للمقرّبين منه ورجال الدولة بضرورة التعامل مع المندوب السوفيتي بلطف شديد، كما دعت إلى احترام البلد الذي يمثله والإعجاب به شخصيا كرجل استطاع أن ينال هذه المعاملة من حاكم ذي سطوة.

وقد كان المعاصرون لتيورياقولوف يقولون إن الدبلوماسيين الغربيين الذين كان محرما عليهم أن تطأ أقدامهم أرض مكة «المقدسة» كانوا أيضا ينظرون

بإعجاب جلي إلى قدرته ليس فقط على التحدث مع الملك وإنما أيضا إقامة علاقات ثقة معه.

ويمكن التأكيد بكل جدارة أن المكانة الخاصة ومشاعر التعاطف الشخصي من قبل الملك عبدالعزيز آل سعود وأفراد الأسرة المالكة قد أدت دوراً كبيراً في تمكن تيورياڤولوف من إنجاز العديد من المبادرات الجليلة لتعزيز مواقع الاتحاد السوفيتي في شبه الجزيرة العربية على مدار السنوات الثماني المثمرة التي قضاها في منصب المندوب المفوض.